ما بعد الحداثة Post-modernité

تمهيد: شكلت الانتقادات المنهجية الموجهة لمفهوم الحداثة الأرضية العلمية لمفهوم ما بعد الحداثة، كما شكلت ينبوعا للتنظير العلمي المتقدم والإبداعي في ميدان ما بعد الحداثة، ويمكن القول بأن مفهوم ما به الحداثة لم يأخذ أهميته بوضعه امتداد زمنيا كحالات حضارية متعاقبة، بل هو نسق من التصورات النقدية التي أبدعتها روح العصر المتجدد في مختلف ميادين الحياة الفكرية.

تعريف ما بعد الحداثة: في غمرة الانتقادات الموجهة للحداثة دفعت بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الإنسانية خرجت من مرحلة الحداثة إلى مرحلة جديدة أطلق عليها ما بعد الحداثة، يقدر الباحثون أنها بدأت عام 1968 وهي المرحلة التي عرفت بثورة الطلاب في مختلف عواصم العالم، ويرى آخرون أنها بدأت مع سقوط جدار برلين تعبيرا على سقوط المنظومة الاشتراكية.

يشير إيهاب حسن أن لفظ ما بعد الحداثة يوحي بفكرة الحداثة وهو بذلك يتضمن بعد التوالي الزمني للعلاقة بين المفهومين، كما لا يوجد إجماع بين النقاد على تعريف واضح لمفهوم ما بعد الحداثة، ويمكن الإشارة إلى موقف يورجين هابرماس حيث يرى بأن لفظ ما بعد الحداثة تمثل رغبة بعد المفكرين في الابتعاد عن ما في متشبع بتناقضات كبيرة و تعبير في الوقت نفسه عن سعي حثيث إلى وصف العصر الجديد.

وذلك أن الإنسانية لم تستطع أن تجد الحلول المناسبة لإشكاليات هذا العصر، ووفقا لهذا يرى هابرماس بأن ما بعد الحداثة هي صيغة جديدة لمفهوم قديم وهو الحداثة، وما بعد الحداثة مشروع محاولة لإثراء مرحلة الحداثة وإتمام مشروعها حتى النهاية. (علي وطفة، 2001، ص114، 112)

الجذور الفكرية لنظرية ما بعد الحداثة: تطور استخدام مفهوم ما بعد الحداثة بعد الحرب العالمية الثانية، وظهر ذلك في تحليلات سيمورفيل التي تناولت كتابات المؤرخ البريطاني أرنولد تريبني وقد كان يرى كل من سيمورفبل وثوينبي أن ظهور فكرة ما بعد الحداثة كان مع ما يعرف بالمرحلة الرابعة في التاريخ الغربي وبالتحديد سنة 1875، بعد انهيار عصر الظلام وظهور الطبقات البرجوازية الوسطى وتبني العقلانية.

وفي الخمسينيات ظهرت أفكار سوسيوتاريخية لفكرة ما بعد الحداثة في الولايات المتحدة الولايات الأمريكية مثل تحليلات رونالد روزنرج عندما استخدم مفهوم ما بعد الحداثة ليصف الأحوال الجديدة للحياة في المجتمع الأمريكي، أيضا عالم الاقتصاد بيتردويكر حيث تكلم عن هذا المصطلح ورأى أن المجمع يشهد

مرحلة نهاية الفرد والجماعة وسيطرة الدولة القومية ونهاية الإيديولوجيات وانتشار التحديث بصفة عامة.

مع نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات ظهرت البوادر السوسيولوجية لنظرية ما بعد الحداثه من خلال تحليلات العديد من علماء الاجتماع المعاصرين مثال رايتميلز وهيستون سميث، وفي الستينيات والسبعينيات تطور استخدام مفهوم ما بعد الحداثة ليمتد إلى مجالات أخرى غير علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد، من ذلك كتابات العديد من العلماء المعاصرين مثل باررااكلوف وفي الدراسات الأدبية والثقافية وعلوم الآثار والفنون والمسرح وصناعة الأفلام، خاصة التحليلات الراديكالية وظهور ما يسمى بثقافة ما بعد الحداثة مثل تحليلات سونتج و دفيدلر وإيهاب حسن.

من مصادر الفكر السوسيولوجي لنظرية ما بعد الحداثة تحليلات الأمريكي إمتاي اتيزيوني، الذي حاول تفسير مجموعة التغيرات في المجتمع الحديث بعد الحرب العالمية الثانية، وتحليلات دانيال بيل حول التناقضات الثقافية للرأسمالية وليوتارد وهارفي.

وفي الثمانينيات التسعينيات تطورت العوامل الفكرية والثقافية التي عملت على تحديث نظرية ما بعد الحداثة وظهرت بصورة نظرية نقدية تعالج القضايا الثقافية والاجتماعية والسياسية والأدبية بطريقة متميزة ومختلفة عن النظريات السوسيولوجية التقليدية والمعاصرة. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص365، 368)

خصائص مرحلة ما بعد الحداثة: يصف إيهاب حسن مرحلة ما بعد الحداثة بالسمات التالية:

- فكر يرفض الشمولية في التفكير ولا سيما النظريات الكبرى، ويركز على الجزئيات والرؤى المجهرية للكون والوجود.
- رفض اليقين في المعرفة ورفض المنطق التقليدي القائم على تطابق الدال والمدلول بمعنى تطابق الأشياء مع الكلمات.
- الإلحاح على إسقاط نظام السلطة الفكرية في المجتمع والجامعة في الأدب والفن و الإطاحة بمشروعية القيم المفروضة من فوق في الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية.

من خلال هذا يرفض أنصار ما بعد الحداثة مفاهيم حداثية مثل العقل والذات، والعقلانية والمنطق والحقيقة، والحقيقة وهم لا طائل منه لأنها نتيجة العقل والمنطق وهما مرفوضان وبالتالي رفضها أيضا. (علي وطفة، 2001، ص112، 113)

تضيف المفكرين ما بعد الحداثيين: يصف ليمرت المفكرين ما بعد الحداثيين إلى ثلاث فئات

- الراديكاليون: ليوتار، بودريار، إيهاب حسن، الذين يعتبرون الحداثة شيء ينتمي للماضي وأن الوضع الراهن الثقافي الراهن لا يحتمل مقولاتها.
- الاستراتيجيون: ميشال، فوكودريدا ، دولوز، الذين يتخذون من اللغة أو الخطاب أساسا لتحليلاتهم ويرفضون أية صيغة لمفهوم الجوهر الشامل، والكلية أو القيم الشمولية.
- الحداثيون المتأخرون: مثل هابرماس وجيمسون، الذين يتخذون موفقا نقديا من الأنساق الشمولية الكبرى ولكنهم لا يرفضون مفاهيم الحداثة.(إيهاب حسن، 1981، ص11)

تقييم نظرية ما بعد الحداثة: رغم أهمية نظرية ما بعد الحداثة في دراسة الواقع الاجتماعي إلا أنها تعرضت لمجموعة من الانتقادات وهي:

- تبنى أنصار ما بعد الحداثة المنظورات التحليلية المتصارعة، كما جاءت تصوراتهم بطابع ديوجماطيقي من الدرجة الأولى كما جاءت تحليلاتها للظواهر الاجتماعية من خلال تبني منظورات ثقافية غير مترابطة وغير متجانسة.
- في تفسيرها للواقع الاجتماعي بعد التصنيع من خلال دراسة المراحل الحديثة من مرحلة الرأسمالية الغربية فقط، وتنوعت مداخلها لدراسة الظواهر الاقتصادية والتكولوجية والثقافية والسياسية والاجتماعية، لكنها لم تستطع أن تحلل العلاقات المتداخلة بين هذه الظواهر أو معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى مرحلة ما بعد الحداثة.
- اتسمت تحليلاتها بالمغالاة في تبنيها المدخل الثقافي وبذلك لم تعط اهتماما كبيرا لدراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الواقعية.
- اتسمت آراء أصحابها خاصة ما بعد السبعينيات بالطابع الميتافيزيقي الفلسفي المجرد، مما جعلها غامضة مبهمة بعيدة عن التحليل السوسيولوجي الواقعي، هذا ما تم اعتبارها نظرية اجتماعية تبنت الكثير من المداخل الابستمولوجية والميتافيزيقية.
- تعتبر آراء ميزليس حول النظرية التركيبية السوسيولوجية عن التشكيل الاجتماعي محاولات جادة للرجوع إلى النظرية السوسيولوجية لكنها في مرحلة المشروع.(عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 397، 398)
- إفراط ما بعد الحداثة في هدم الأطر المعرفية التقليدية دون تقديم بدائل قابلة للتطبيق، فعوضا من تقديم نظريات قدمت وعودا فقط.
- إفراط ما بعد الحداثة في الجانب النظري ولم تهتم بالجانب الحقيقي بدرجة كافية، وقالت بأنه لا يوجد ما يسمى بالعالم الحقيقي في العالم الاجتماعي.
- افتقار ما بعد الحداثة إلى مرجعية موحدة وسقطت في فخ التعددية المفرطة، مما جعل العالم الذي يأمله أنصارها مفكك يفتقد للمنظومة المعرفية والأخلاقية.

- يوجد من شكك في عدم جدية الفكر ما بعد الحداثي في التحرر من قيود الحداثة و يراها ذات مركزية غربية أوربية رغم أنها كانت تعيب الحداثة.

- يرى الوضعيون وفي مقدمتهم الواقعيون الجدد أن ما بعد الحداثة أقل تأملية مما تدعيه، ويطغى عليها الجانب الفلسفي أكثر من الإجرائي.(بدر الدين بوقريطة، دت، ص 243)